

الفصل الثاني الأدب ومراحل الطفولة

أولاً: في مرحلة الطفولة الأولى (١ - ٣ سنوات)

يمكن أن نعتبر المناغاة أول قصة في حياة الطفل وهو يدخل عالم الكلام، ورغم أنه لا يفهم كلمة منها، لكنه يستجيب لنغمات كلمات أمه القصيرة المفرحة، لعباً بأطرافه، وترديداً لأصوات هي أقرب ما تكون للحروف المتحركة بابابا - ماماما، في ظروف أشبه بظروف المناجاة بين الأحياء، أو هديل الحمام^(٢١)، وذلك في السنة الأولى.

وبعد أن تمر السنة الثانية تكون قد نمت قدرته على الاستماع، والربط بين بعض الأصوات والأفكار والمعاني التي تتمشى معها، ومن ثم تفسير بعض الكلمات واستعمالها، كما يصدر عنه من الأفعال ما يعد دليلاً على ربطه بين أصوات الكلمات ومعانيها، وإن كان الكلام والفعل بالنسبة له شيئاً واحداً^(٢٢)، وفي هذه المرحلة تبدأ اللغة في النمو، كما تنمو حواسه، وتتطور حركاته^(٢٣).

-
- (٢١) انظر د. علي الحديدي «في أدب الأطفال» صفحة ٨١، وكذلك د. محمد عماد الدين إسماعيل «الأطفال مرآة المجتمع» صفحة ١١١.
- (٢٢) د. علي الحديدي في أدب الأطفال صفحة ٨٢.
- (٢٣) انظر د. غسان يعقوب «تطور الطفل عند بياجيه» دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٨٢، صفحة ٧٣، ٨٠.
- (٢٣) محمد حسن بريغش «أدب الأطفال تربية ومسؤولية» ط ١ سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، المنصورة ص ٨١.

ويجب أن يتتبع الكبار حب الأطفال وانشغالهم بالكلمات وأصواتها، فيشبعون هذه الرغبة لديهم، بترديد الكلمات ويتقديم الكتب المناسبة لهم، لتعلم كلمات وألفاظ جديدة أكثر، بحيث تتم عملية التهيئة لتعلم القراءة في جو يشعر بالسعادة، حتى ينتقل الطفل من مرحلة الاستماع إلى مرحلة القراءة - بسهولة وبسر، وقد تكونت لديه بعض المهارات القرائية.

ومن المناسب هنا محاولة تلقين الطفل كلمة التوحيد^(٣٣)، حتى يألفها ترديداً فذلك من سنن الإسلام، لتبدأ عقيدته في الرسوخ، وأن تكون بعض قصار السور مجالاً من مجالات القراءة فقصر جملها يعينه على تنمية مقدرته القرائية.

والكتاب الأول للطفل يجب أن تتحمل أوزانه عبث الأطفال، ويمكن أن يكون صوراً للأشياء المألوفة لديهم، كاللعب والملابس والحيوانات والطيور، بشرط أن تكون واضحة وبسيطة، بحيث يتعرف عليها الطفل بسهولة، ودون تكثيف للصور في الصفحة الواحدة، وقد يتضمن هذا الكتاب مادة قصصية بسيطة، حيث إن تتبع خط سير قصة معينة قد لا يبدأ قبل حوالي سن الخامسة^(٣٤)، وهو يدرك - في هذه السن - المشاهد كما لو كان كل منها مستقلاً عن الآخر.

وفي منتصف السنة الثالثة تقريباً يستخدم حواسه لاختبار البيئة من حوله، وتصبح معرفة الطفل عن طريق الاستعمال غالباً، فالكرسي للجلوس، والقلم للكتابة، وهنا تأخذ الأشياء اهتماماً خاصاً، لأنها تصبح وسائله في التعامل مع بيئته ليخوض تجارب العالم التي يعرفها، فالكرسي يمكن أن يصبح سيارة كسيارة والده، وأي عود خشبي يمكن أن يركبه ليصبح حصاناً، والعروسة (الدمية) تصبح رضيعاً

(٢٤) الأطفال مرآة المجتمع صفحة ٣٣٥، صفحة ٣٣٧.

يُهدد، وهكذا يكون لعبه تكراراً لنشاطه في هذه السن^(٢٥)، كما يلمس بعض العلاقات الأسرية ويختلط بالأطفال، ويقلد الكبار في إقامة بعض الشعائر كالصلاة.

ثانياً: مرحلة الطفولة المبكرة (الطفولة الثانية) من (٣ - ٦ سنوات)

وتتميز بما يسميه بياجيه الذكاء الحدسي، وهو يعني لديه «المعرفة المباشرة للشيء دون - تدخل العقل أو المنطق أو البرهان»^(٢٦) فالطفل برغم تطوره في هذه المرحلة عن سابقتها من حيث اتساع لغته على نحو ما، مما يمكنه من الاتصال بالحياة، والاحتكاك بالآخرين ويحقق قدراً من الاندماج الاجتماعي نتيجة تفاعله مع المجتمع في بعض فعالياته، لكنه «يبقى عاجزاً عن تقديم البراهين وإعطاء الأدلة لإثبات رأي أو فكرة، أو لإقناع الآخر بما يقول أو يريد»، وإن كان يحاول أن يؤكد أحياناً، ولكن دون إثبات أو تحليل منطقي، أو إدراك للعلاقات المتبادلة، أو العكسية، التي تتضح في ترتيب الأشياء، أو إعادة ترتيبها^(٢٧).

ومن مزايا هذه المرحلة أيضاً وضوح التصور الذهني لدى الطفل، والقدرة على التفكير، وفهم بعض الرموز والمعاني القائمة في اللغة والكلام، وإن كان بياجيه لم يقيد هذه الميزة بمستوى معين من التحقق أو الوجود، مكتفياً بجعلها نتيجة للنمو الذهني في هذه المرحلة، وهو نمو يجب أن يستثمر في اتصال الطفل بالقرآن الكريم تدريجياً.

ومن مزايا التطور الذهني في هذه المرحلة أيضاً مقدرة الطفل على الإدراك

(٢٥) د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» صفحة ٨٥ وما بعدها.

(٢٦) د. غسان يعقوب «تطور الطفل عند بياجيه» دار الكتاب اللبناني بيروت سنة ١٩٨٢ صفحة

(٢٧) السابق نفسه والصفحة نفسها وما بعدها.

المسبق للفعل وتصوره أو تمثله ذهنياً.

ويمكن أن تضيء فكرة عدم إدراك الطفل للعلاقات المتبادلة أو العكسية طبيعة الفنون الأدبية، التي تناسب الأطفال في هذه المرحلة، فالقصة - على سبيل المثال - التي تتلاءم مع التطور الذهني لهذه المرحلة هي القصة ذات الحدث الواضح البسيط، البعيد عن التركيب وتعقد العلاقات الفنية، فيكفي أن يكون الحدث مبنياً على علاقة واحدة، حتى يتمكن أطفال هذه المرحلة السنية من استيعاب القصة ومتابعتها، والاستفادة منها ثقافياً ووجدانياً، ففكرة «رد الجميل» في قصة «الكلب والحمامة» لأحمد شوقي^(٢٨)، قد تكون غير ملائمة بهذه الصورة لهذه السن، نظراً لأن الحدث فيها يتكون من علاقيتين: الأولى بين الحمامة والكلب عندما أيقظته من نومه قبل مهاجمة الثعبان له، فأنقذت حياته، والعلاقة الثانية تتمثل في رد الكلب الجميل لها بنباحه عندما رأى الصياد قادمًا، في مرة أخرى، فأدركت الحمامة الخطر وطارت فنجت، فالحدث بهذا التعقيد قد يكون أنسب لأطفال المرحلة السنية التالية وهي الطفولة المتأخرة من (٨-١٢ سنة) نظراً لنموهم الذهني، وتطورهم العقلي والمعرفي، بل إن أحد هذين المستويين السابقين للحدث، أو إحدى هاتين العلاقتين السابقتين المشكلتين للحدث، تكفي فقط لأطفال هذه المرحلة السنية؛ وهي الطفولة الثانية أو المبكرة، حيث يمكنهم استيعاب هذه العلاقة الواحدة، أو تصور مواقفها، وفهم مغزاها كنوع من فعل الخير، ومساعدة الأشخاص بعضهم لبعض، وتلك فكرة أخلاقية يدعو إليها ديننا الحنيف، وحبذا لو حاول الأدب الإسلامي غرسها في أطفالنا بهذه الوسيلة ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾.

وعلماء النفس والتربية حين درسوا مراحل النمو العقلي والوجداني للطفل،

(٢٨) انظر «ديوان شوقي للأطفال» تقديم وإعداد عبد التواب يوسف - دار المعارف القاهرة سنة

١٩٨٤م صفحة ٨٤.

وجدوا أن هناك بعض الخصائص النفسية التي لو أشبعتها القصة لاجتذبت الطفل إليها، لا سيما في هذه السن المبكرة، من هذه الخصائص: الإحساس بالافتقار والاستعادة، فالطفل مرتبط بأمه يفرح اقترابها منه ويحزن لبعدها عنه، ويسر إذا عادت إليه، فإذا ما قدمت له القصة التي تتضمن افتقاد شيء ثم استعادته، فإنها سوف تدخل البهجة على نفسه، وبالتالي يستوعب ما فيها من أهداف أخلاقية إسلامية يناسب مستواها هذا السن، كما يستمتع بما فيها من لمسات فنية جمالية تتصل بنمو الحدث والتشويق مثلاً.

وإذا ما واجه الطفل إحباطاً من أبويه ونظرائه ينشأ لديه إحساس بالحاجة إلى الرفيق المثالي الذي يرتاح إليه، ويملاً عزلته تعويضاً عما افتقده في منزله، ومن ثم فإن قصة تتضمن صداقة بين شخصين بشراً أو حيوانات، بحيث يجد كل منهما في صاحبه العون والرعاية والمؤازرة والأنس، يمكن أن تشبع لدى هذا الطفل إحساسه بالحاجة إلى الرفيق المثالي، أو على الأقل ترضي هذا الإحساس بما يجعل الطفل يقبل على مثل هذه القصة، وما تتضمنه من قيم ومبادئ إسلامية يراد غرسها في نفسه، بالإضافة إلى الراحة والمتعة التي تنتج من إشباع هذا الاهتمام.

وربما كان الإحساس لدى الكبار بوجوب تحقيق العدالة وهي قيمة إسلامية هامة، وتطبيق القوانين، منشؤه من الصغر، فالطفل في السنة الخامسة تقريباً ينشأ لديه إحساس بوجوب العدل، وعقاب المذنب، من هنا فهو يستريح لقصة يثاب فيها الخير، ويعاقب المسيء، بل إن المكافأة على الأفعال السوية التي تبرزها للطفل قصة من القصص مما يستثير لديه فعل الخير، والحرص على العدل والإنجاز كقيمة إسلامية ومبدأ^(٢٩) ديني، وفي القصص القرآني، وسيرة المصطفى ﷺ وأفعال صحابته - رضي الله عنهم - نماذج كثيرة تحقق ذلك الإحساس، الذي سوف توضحه نماذج الأدب الإسلامي في الفصول القادمة.

(٢٩) انظر محمد محسن الصاوي كتاب «الموسم الثقافي» ٨٤/٨٥ مرجع سابق.

والطفل في هذه المرحلة قد يقارن نفسه بالراشدين في بيئته، فيشعر بضعف الحيلة، وقلة المعرفة، لكنه يتوق إلى امتلاك عناصر القوة والاعتدال التي تضمن له التفوق، والقيام بدور الكبار، من ثم فإن القصة التي تكشف أشخاصها عن تفوق الصغير، ونجاحه فيما قد لا ينجح فيه بعض الكبار، مما يرضي هذا الإحساس بالتفوق لديه، فينجذب إليها، ويتسلل ما فيها من قيم إلى نفسه وأعماقه .

وإذا كانت حياة الطفل في سنه الأولى امتداداً لمرحلة ما قبل ميلاده من حيث التصاقه بأمه، فإنه يبدأ في هذه المرحلة في الابتعاد تدريجياً عنها، اعتماداً على نفسه، كما يوسع من علاقاته، في محاولة للخروج عن خط أسرته، واعتماده على أبويه، وهنا ينمو لديه إحساس بالاستقلال والاعتداد بشخصيته، وذلك قبيل السنة السادسة، ويقوي هذا الإحساس بعد هذه السن لدرجة العناد أحياناً، لذا فإن كل قصة تعلي من استقلال الشخصية إنساناً أو حيواناً، وتحقيقهما لما يريدانه بفضل تفكيرهما وقوتهما، ووصولهما إلى غايتهما اعتماداً على مقدرتهما، لما يرضي عند الطفل خيال الاستقلال عن الأسرة، ويدعم شخصيته لأنها تتوافق مع مرحلة بداية وثوقه بنفسه، وثوقاً قد يصل إلى مرحلة الاعتزاز والفخر بقدراته، ويصبح تدخل الآخرين في شؤونه حرماناً له من التمتع بشعور الاستقلال، ومن هنا فهو يغار على ممتلكاته، ويحرسها بنفسه تأكيداً لذاته .

والطفل في منتصف هذه المرحلة (السنة الثالثة) لا يستطيع أن يميز بين الخيال والواقع بدقة، بل قد يخلط بينهما^(٣٠)، وإذا كان يندفع من نشاط لأخر فإن قدرته على الملاحظة والتركيز وإدراك التفاصيل تبدأ في التدرج، من هنا فقد ترضيه قصة تدور حوله، أو حول من هم في سنه، ونفس تجاربه، وفي حدود بيئته، بصدق وأمانة، وسوف يوضح ذلك كثير من النماذج الإسلامية في الفصول القادمة إن شاء الله .

(٣٠) ذكاء الحر الطفل العربي وثقافة المجتمع ص ٤٦ .

واقتران الفكرة بالصورة التي توضحها مما يتمتع الطفل ويستحوذ على اهتمامه وانتباهه، من هنا فمهمة الأم والمدرسة والمربية تحتاج إلى مجهود، لتهيئة الجو المناسب للقصة ونجاحها، ولا بد أن تستقل كل صورة بفكرة، بحيث تكون كاملة وليست جزءاً من صورة، حتى تعطي انفعالاً واضحاً محدداً^(٣١)، وحبذا لو تم ذلك بالحركة التي تجسده، فالفرح مثلاً يوضحه الابتسام أو التصفيق، بينما الحزن قد يكشف عنه العبوس والجمود.

وفي نهاية هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يتعامل مع أكثر من فكرة ويربط بينهما، وقد يتعاون مع غيره في اللعب فيكونون فصلاً (المدرس أو المدرسة وتلاميذهما)، أو عيادة طبية (الطبيب ومرضاه)، أو بقالة (البائع والمشتري) وهكذا، وإذا كانت القصة في منتصف هذه المرحلة لا تتجاوز الوصف، من ثم فقد تكون بلا عقدة، فإن القصة الملائمة لنهاية هذه المرحلة قد تتكون من حدث بسيط لينتهي بعقدة بسيطة وسهلة أيضاً، كما قد تتطور طبيعة الشخصيات من نوعيات لصيقة بيئة الأطفال كالأب والأم والإخوة، إلى شخصيات ليست لصيقة بيئتهم، لكنها مألوفة لديهم كالمدرسين والزملاء والضيوف والأصدقاء.

وتحريك الجمادات مما يستثير الأطفال ويجذب انتباههم، كما أشرنا سابقاً^(٣٢) - وكلما كانت القصة متضمنة لمواقف حياتية يمرون بها، بما فيها من مآزق ومشاكسات ومعاكسات، فإنها تكون أكثر جذباً لهم، لا سيما مواجهة «الولد الشقي»^(٣٣) لنتائج أعماله، وحبذا لو تجلت القيمة الإسلامية كحل لإحداث التوازن المطلوب، وفض المشكل القائم.

(٣١) انظر د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» ص ٩١ وما بعدها.

(٣٢) انظر ص ١٤ من هذا الكتاب.

(٣٣) د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» ص ٩٥.

مرحلة الطفولة المتوسطة أو الثالثة (من ٧ - ٩ سنوات تقريباً)

في بداية هذه المرحلة تنمو مقدرة الطفل على التركيز، كما يطول مدى الانتباه لديه تدريجياً، ويمكنه أن يكتسب مهارات عدة في القراءة، بل ويستطيع الاستغراق فيها في نهاية هذه المرحلة، وقد تصبح هواية ممتعة له، بحيث تتنوع هذه القراءات، وهنا يصبح القرآن الكريم - خاصة قصار السور والآيات المتضمنة بعض العناصر القصصية خير زاد يقدم للطفل كسورة «الفيل» و«المسد» وغيرهما، بجانب نماذج الأدب الإسلامي. كما يمكنه أن يتقن الكتابة، ويتميز بحب الاستطلاع، وينمو خياله، بحيث يصبح قادراً على التخيل^(٣٤)، الذي يصير من بين وسائله في التعرف على ما وراء الطبيعة والبيئة المحيطة به، من هنا يمكن أن يتقبل ويستمتع إلى بعض قصص كليلة ودمنة، وبعض قصص ألف ليلة وليلة، بل وبعض الأساطير التي تناسب سنه، وعلينا أن نخبرهم بأن هذه القصص لم تقع وإنما هي مجرد خيال، لا سيما عندما يدفعهم حب الاستطلاع إلى معرفة حقيقة ما يحكى لهم، أو ما يتمكنون من قراءته.

وكلما كانت القصة ممثلة كانت أكثر جذاباً لهم، وبرغم تقبلهم لبعض القصص التاريخية، لكنهم قد لا يدركون الفهم الدقيق للتسلسل الزمني إلا في نهاية هذه المرحلة، برغم إدراكهم للمواقف المتناقضة والمتباينة.

وفي هذه المرحلة يتقبل القصص التي تشبع لديه حب العدل وتطبيق القوانين، كما تزداد حساسيتهم للنقد، مما يجعلهم يقبلون على القصص التي يعاقب فيها المذنب^(٣٥)، ويثاب المحسن، كما يقوي اتصاله بالرفاق في جماعات للعب أو

(٣٤) انظر السابق نفسه ص ٩٧، ٩٨ وكذلك: «الطفل العربي وثقافة المجتمع» ص ٤٦.

(٣٥) انظر محمد محسن الصاوي كتاب «الموسم الثقافي» ٨٤/٨٥ لمعهد التربية للمعلمين بالكويت ط ١٩٨٦ ص ١٠١.

العمل تأكيداً لذاته، ومن ثم فإن القصص التي تدعم استقلاله عن الكبار تكون محببة إليه، لكن الأطفال برغم ذلك يكونون بحاجة إلى رعاية الكبار التي لا تحد من استقلالهم، كما يكونون بحاجة إلى عطف الكبار الذي لا يفقدهم التوازن بين نشدان الاستقلال عن الكبار، والرغبة في التمتع بحبهم وعطفهم.

وفي نهاية هذه المرحلة أيضاً يتضح تباين الاهتمامات بين البنين والبنات، ومن ثم فهم بحاجة إلى أدب إسلامي يواجه هذا التباين الذي قد يطبع نشاطهم بطابع النوع^(٣٦).

ويلاحظ أن الأطفال في هذه المرحلة يستمتعون بكتب المسلسلات والألغاز، وتتضح لديهم القدرة على تقبل المغامرات الخيالية، وسير الأبطال، والحياة في ماضي شعوبهم، وغيرهم من الشعوب، كما يصبح اقتناؤهم الكتب في هذه المرحلة - لا سيما في نهايتها - شيئاً محبباً لديهم، وخاصة الكتب التي تشبع اهتماماتهم بإجاباتها على ما يدور في أذهانهم من أسئلة واستفسارات^(٣٧). وفيما سوف يأتي من نماذج الأدب الإسلامي في الفصول القادمة ما يوضح ذلك.

مرحلة الطفولة المتأخرة (٩ - ١٢ سنة تقريباً)

هذه المرحلة قد تسبق البلوغ، وهي امتداد ونمو للمرحلة السابقة من حيث تنوع معدل النمو الجسماني، وتنوع الاهتمامات بين البنين والبنات، فالنمو الجسماني عند البنات أكثر وضوحاً وأسبق، كما أن اهتمامهم جميعاً بالقراءة يزداد، لا سيما الكتب التي تتصل باهتماماتهم في هذه المرحلة كالقصص العالمية، والخيال التاريخي، كما يستطيع الطفل متابعة المشكلات من وجهات نظر متعددة، وقراءة

(٣٦) د. علي الحديدي في «أدب الأطفال» ص ٩٩.

(٣٧) انظر السابق ونفس الصفحة وكذلك محمد محسن الصاوي محاضرات الموسم الثقافي

١٩٨٥/٨٤ لمعهد المعلمين بالكويت ط ١٩٨٦ ص ١١٥.

الأدب ذي الخيال الخصب نوعاً ما .

وظفل هذه المرحلة قد يكون أكثر خروجاً عن خط الأسرة، والإحساس بخيال الاستقلال عنها، كما يوسع من علاقاته وانتماءاته، ومن ثم فهو بحاجة إلى أدب إسلامي يزوده بالفهم السليم للعلاقات الأسرية، ومتغيراتها، كما يساعده على اختيار القدوة والمثل الأعلى، واختيار الرفيق المثالي تعويضاً عن ابتعاده عن والديه، وتأكيذاً لاعتماده على نفسه، وإثباتاً لذاته، كما يزوده هذا الأدب بكثير من قيم الدين الإسلامي التي تناسب هذه المرحلة، والتي تتصل بالعبادات والمعاملات كمصارف الزكاة، وعلاقات البيع والشراء .

وحيث إنه يتهيأ لأخذ دوره في الحياة، فحبذا لو قدمنا له أدباً وكتباً تزوده بمعلومات عن المهن المختلفة وبأسلوب قصصي مثلاً حتى يستطيع أن يكون تصوراً سليماً عن مستقبله المهني^(٣٨) .

وفي هذه المرحلة أيضاً يميل الطفل إلى المغامرة والبطولة والمنافسة والشجاعة، ولذلك فهو بحاجة إلى أدب يشبع هذه الميول كالقصة البوليسية، وقصص الحروب، والمخاطرات والمغامرات، لكنها يجب أن تكون ذات أهداف إنسانية، وقيم شريفة، تزكي إحساسه بالأخلاق^(٣٩)، وتعينه على التوافق مع بيئته ومجتمعه وأمه كقصص أبطال المسلمين: الرسول - ﷺ -، وصحابته، وصلاح الدين وغيرهم، وقصص المكتشفين والرحالة سواء في ذلك، ما كان حقيقياً أو متخيلاً .

ويجب أن يرقى البناء الفني للقصة بما يتناسب مع هذا النمو الجسمي والعقلي، وبما يعلي من إدراكهم للجمال الفني .

(٣٨) انظر السابق نفسه ص ١٠٢ .

(٣٩) السابق نفسه وكذلك انظر «الطفل العربي وثقافة المجتمع» ص ٤٧ .